المقتطف

الجزء الثاني عشر من المجلد الثامن والعشرين

١ ديسمبر (كانون الاول) سنة ١٩٠٣ — الموافق ١٢ رمضان سنة ١٣٢١

اقدم الآثار المصرية

للدكتور فلندرس بتري شأن كبير عند علماء الآثار المصرية لانهُ وسَّع تاريخ مصر بكشفياتهِ الكثيرة واوضح كثيرًا من غوامضهِ بابحاثهِ الدقيقة . ولهُ انداد من علماء الآثار يخالفونهُ في كثير من النتائج التي وصل اليها ولكنهم لا ينكرون عليهِ مقدماتها ولا يجحدونهُ حقَّهُ من الاكرام . وقد اطلعنا الآن على مقالة مسهبة لهُ جمع فيها زبدة ما اكتشفهُ حديثًا من آثار ابيدوس او العرابة المدفونة فاقتطفنا منها ما يلي قال

" لقد اظهرنا آثار مقام من اشهر المقامات المصرية يمتدُّ تاريخهُ من ايام الملك الاول من ملوك مصر الملك مينا الذي نشأ قبل المسيح بنحو ٤٧٠٠ سنة الى ايام الملك نجتحورهب الذي كان سنة ٣٧٠٠ قبل المسيح . وهذه الآثار في طبقات منضدة بعضها فوق بعض كأنها صفحات كتاب مكتوب

" الآن الناظر اليها لا يدرك ما فيها ما لم يتعلَّم العلم الذي يُعرف بهِ مغزى رموزها اي شقف الخزف وحبوب الخرز وقطع الصوان ويعلم في اي عصر صُنع كلٌّ منها والنقب في اطلال المدن القديمة متلفة لتاريخها ان لم ينتبه الناقب لكل ما يجدهُ فيها من هذه الرموز او الدلائل واما اذا انتبه لها حق الانتباه وكان عالمًا بمدلولاتها قرأ فيها تاريخها كما يقرأ كتابًا مسطورًا "

والفضل الاكبر في وضع هذا العلم وتوسيعهِ للدكتور بتري نفسهِ وقد اخذهُ عنهُ صديقنا الدكتور فردرك بلس وقرأ بهِ تاريخ كثير من اطلال فلسطين . ومما يؤسف عليهِ ان الناقبين في الآثار المصرية قلما ينتبهون لذلك . دعانا المسيو ده مورجان لما كان مديرًا لدار الآثار

المصرية لمشاهدة ما اكتشفهُ من الآثار في دهشور فرأيتهُ ينزل الى اعماق الارض لبحث عمَّا في مدافن الاموات من الكنوز والعظامُ والقرانُ مبثوثة على وجهها وهو لا يلتفت اليها فقلت لهُ في ذلك واسفنا على تركهِ تلك الكنوز الثمينة تتلف بالنقب والنقل ويُجهَّل مكانها فصوَّب تركنا نكتهُ حسب ان الانتباه لها ليس من ولايتهِ . ولو كان الدكتور بتري هناك لحرص على تلك العظام وقطع القران اكثر مما حرص ده مورجان على ما وجدهُ من قلائد الذهب والعقيان

وقال الدكتور بتري في المقالة المشار اليها آنفاً "اني آسف كل الاسف لان الناقبين في المقامات الكبيرة مثل هيكل ايدوس لم ينتبهوا لما فيها مما يدل على تاريخها

"والظاهر ان ايدوس كانت اقدم عواصم مصر وكان هيكلها ينهدم ثم يبنى هيكل جديد على اطلالهِ فيتهدَّم هذا بكرور الايام ويبنى هيكل آخر على اطلالهِ وهلمَّ جرًّا الى ان توالت آثار عشرة هياكل في ما عمتهُ عشرون قدماً من الانقاض وقد بقي قليل من اساس كلٍّ منها وشيءٌ من جدرانهِ

"وفي عهد الدولة الثانية من الدول المصرية جُمع ما في هذا الهيكل من النذور القديمة او المكسرة ووضع في غرفة واحدة كأنهُ تفاية الهيكل وحطام ما فيهِ ثم وقعت عليهِ الانقاض وتراكمت قرناً بعد قرن حتى بلغ ارتفاعها فوقهُ خمسة امتار . وقد وجد كاس الملك مينا قرب هذه الحطام فهي من عهد الدولة الاولى على الاقرب

"بلغت هذه الحطام وهي من العاج والخزف المدهون وجعلت ارفعها واحدة واحدة واعجب بما فيها من بديع الصنعة . ورأيت العاج باليًا اذا امسكتهُ بيدك تناثر كالرماد فقطعت قطعة كبيرة من التراب فيها كثير من قطع العاج ووضعتها على طبق ونقلتها الى الغرفة التي احفظ فيها الآثار وتركتها اسبوعين حتى جفَّت ثم مسكتُ قلماً من اقلام الشعر التي يصوِّر بها المصورون وجعلتُ انزع التراب عن العاج فاستخلصت قطعهُ كلها ووجدت انها مصنوعة في اشكال الاسود والذباب والسعادين والاولاد . ثم ظهر في ثوب انسان وبعد قليل وصلت الى رأسهِ ووجههِ فاذا هو من ابدع ما نقشهُ النقَّاشون . ظهر امامي بعد ان لبث مدفوناً ستة آلاف سنة وعلى رأسهِ تاج مصر العليا وعلى بدنهِ حلَّة موشاة . تمثال ملك من اقدم ملوك العالم واعظمهم شأناً واشدهم بأساً تزري صناعتهُ بصناعة الرومان . تحاكاتهُ لطبيعة تامَّة لا يزيد عليها جمالاً ولا ينقص عنها اعتدالاً وهنا عنوان الاتقان في الصناعة وبلوغ الكمال فيها . ولقد انحطت صناعة المصريين بعد ذلك العصر فلم تعُد تبلغهُ

"ولم يكن هذا التمثال مفرداً بل وجدت معهُ تماثيل اخرى من نوعهِ احصها تمثال امرأة

والمحاكاة فيه للطبيعة تامة ايضاً حتى ملامح الوجه لا تفرق عما يرى عادة في النساء . ومنها تماثيل اولاد واقفين او ماشين او جالسين وكلها طبيعية لا تقيد فيها ولا متابعة لشكل مخصوص . وتمثال دب رابض واسود مقعية وكلب كبير وهي تدلُّ على ان الناقشين كانوا في ذلك العصر يدرسون الاشكال الطبيعية ويدققون النظر في اوضاعها وحركاتها وسكناتها ويحاولون مضاهاة الطبيعة كما هي. فعلينا ان نعترف بان صناعة النقش نشأت منذ اكثر من سبعة آلاف سنة وبلغت حدها من الاتقان حينئذٍ ثم تجدَّدت خمس نوبات بعد ذلك ولكنها قلما فاقت الحد الذي بلغته اولاً

"ولم يكتفِ اولئك الصناع بمحاكاة الاشكال الطبيعية بل صنعوا من الآنية والمواعين ما هو في حد الاتقان ايضاً فصنعوا الكؤوس والقوارير من اصلد الصخور من الحجر الاعبل والحجر السيناتي والبرفير والبلور والسج . ووجدت الآنية التي صنعوها في قبور ملوكهم وهي تدلُّ على مهارتهم وعلى طموح ابصارهم الى ما لعجز الصنَّاع عنهُ مما لم يفقهم فيهِ الذين جاؤا بعدهم

"ومهروا ايضاً في صناعة الخزف ودهنهِ بمادة زجاجية وترصيعهِ كما يظهر من كاس الملك مينا التي وُجدت هناك فان عليها اسمهُ بدهان ارجواني وهو اقدم اسم من اسماء الملوك وُجد حتى الآن . ولا بدَّ من ان يكون الملك مينا قد مسك هذه الكاس بيدهِ ورأى اسمهُ مكتوباً عليها واهداها الى الهيكل الاول الذي اقيم في تلك العاصمة . فقد صُنعت هذه الكاس قبلما حدث شيء من كل حوادث التاريخ التي نعلمها. قبلما بنيت الاهرام وولد تحتمس ورعمسيس وقبلما ظهر اليونان والرومان

"وكان المصريون الاقدمون يصنعون الزجاج الملوَّن ويزخرفون بهِ جدرانهم ويدهنون بهِ الاجر ويجعلون في اجرّهم حفرًا تمرُّ فيها اسلاك من النحاس تربطها بعضها ببعض لتوثيقها في البنيان . وعلى وجه الاجر اضلاع تمثل سوق البردي ورؤوسهُ حتى اذا بنيت بعضها فوق بعض ظهر نبات البردي منقوشاً عليها . والاجر ليس من قدر واحد ولا من شكل واحد بعضهُ مضلَّع كما تقدم وبعضهُ محزَّز وبعضهُ في شكل الحصر وعلى بعضهِ كتابات مرصَّعة فيهِ ترصيعاً

"والكؤوس في شكل النيلوفر وهي تدلُّ على ان اقتباس شكل النيلوفر لتيجان الاعمدة قديم جداً . ولون دهانها اخضر تتخلله نقط ارجوانية وهو كذلك في كاس الملك مينا ولعلها كلها من معمل واحد . وهناك اشياء كثيرة مصنوعة من الخزف المدهون كتماثيل الرجال والنساء والاولاد والاسرى والعبيد والقرود والطيور وذوات الاربع واشكال الهياكل وانواع الخرز وما اشبه كأن صانعي الخزف كانوا يطمعون في تمثيل كل الاشياء الطبيعية والصناعية فيصنعونها من طين ممزوج بالرمل ثم يدهنونها بدهان زجاجي

"وقد وجدت في قرميدة عليها صورة امير من امراء الزنوج واسمهُ واسم بلادهِ وفي حصن الانو . ومعلوم ان اسم الانو وارد مرارًا كثيرة في الآثار المصرية لان الحرب كانت مستمرَّة بينهم وبين المصريين القدماء وبقي المصريون يعيِّدون في مثل اليوم الذي تغلبوا فيهِ عليهم الى آخر عيدهم . فثبت من هذه القرميدة ان الانو من الزنوج سكان السودان وان مسألة السودان قديمة تمتد الى عهد المصريين الاولين

"ووجدنا في غرفة اخرى كثيرًا من التماثيل الساذجة ويظهر انها قديمة جدًّا اقدم من التماثيل المشار اليها آنفًا واقدم من عصر مينا ولعلها وُضعت هناك لانها لم تعد تصلح للبقاء في الهيكل بعد ان ارتقت الصناعة فهي اقدم من عصر التاريخ وبينها تماثيل السعادين ومنها ما هو حجارة طبيعية وجدت تماثل نوعًا من الحيوان فاتخذت عوذة وحُفظت كما هي او أُصلحت قليلاً حتى يتم شبهها بالحيوان الذي تشبههُ . وبعضها من الصوان وهو كبير ارتفاعهُ قدمان او ثلاث وكانهُ وُجد في الصحراء مماثلاً في شكلهِ لبعض انواع الحيوان فاتي بهِ الى الهيكل رهبةً منهُ او تيمنًا بهِ . والعقل الذي كان يتفاءل بصور الموجودات ويتشاءم بها لا يزال الى يومنا هذا يتفاءل ويتشاءم حتى في ارقى مجامع الحضارة

"والظاهر ان الناس انتقلوا الى صناعة النقش والتصوير من اهتمامهم باصلاح هذه الاشكال الطبيعية واني لاحد اول انسان قال بعمل التماثيل من اي حجر كان بدلاً من الاقتصار على الحجارة التي توجد مماثلة لها فانهُ اول من كسر قيد التقليد ووسع المجال للعقل واقنعهُ بانهُ ليس عبدًا للطبيعة بل سيد عليها . وليس هذه باول مبادئ الصناعة لان الانسان وجد في مصر قبل التاريخ بعصور كثيرة

"ووجدنا في تلك الغرفة رأس جمل مصنوعًا من الخزف . ولم يوجد رسم للجمل في القطر المصري قبل عهد اليونان مع انهُ كان معروفًا في بلاد الشام من عهد ابرهيم الخليل . ويستدل من هذا الرأس على ان الجمل كان معروفًا في مصر ايضًا على عهد الدولة الاولى من الدول المصرية . ومما يجري هذا المجرى اننا وجدنا قطعةً من الحديد بين قطع من النحاس من عهد الدولة السادسة التي كانت قبل المسيح بثلاثة آلاف واربع مئة سنة . وكان المظنون ان الحديد حديث الاستعمال لانهُ لم يوجد في ما هو اقدم من الف سنة قبل المسيح من الآثار المصرية ولا كثر استعمالهُ الاَّ في عهد اليونان اما الآن فثبت لنا ان المصريين عرفوا الحديد قبل ذلك بثلاثة آلاف سنة

"ولا تقتصر هذه الآثار على تاريخ مصر القديم بل تتناول تاريخ اوربا ايضًا فقد وجدت

منذ مدة قطعاً من الخزف اليوناني القديم في مدافن ملوك الدولة الاولى من الدول المصرية . والآن وجدت في هذا المكان خزفاً اسود ليس من الخزف المصري في شكلهِ بل من الخزف اليوناني . اخذت قطعةً منهُ الى جزيرة كريت فوجدت بين القطع التي اكتشفها الدكتور ايفانس في خرائب قصر كنوسوس قطعاً تشبهها تماماً شكلاً ولوناً ومادةً وصقالاً . والخزف الذي وجد في كريت يمتد تاريخهُ الى العصر الظراني الحديث الذي كان قبل المسيح باربعة آلاف سنة او اكثر فهو ينطبق على تاريخ المدافن المصرية التي وجد فيها هذا الخزف . فمبدأ العمران الاوربي متصل بمصر حين كان عمرانها في اوج مجدهِ

"ثم عثرنا على اسم خالدٍ في التاريخ اسم الملك خوفو من الدولة الرابعة الذي بنى الهرم الاكبر من اهرام الجيزة وفعل ما غاظ كهنة بلادهِ فابغضوهُ وقالوا انهُ اقفل كل المعابد ومنع المصريين من تقديم القرابين وامرهم ان ينقطعوا للعمل لهُ . ونقل هيرودوتس عن الكاهن مينثوان هذا الملك كان مزدرًى في عيني الآلهة . ثم قال بعد ذلك انهُ نسخ الكتاب المقدس الذي كان المصريون يحترمونهُ كثيرًا . ويفهم من ذلك ان الرجل كان صالحاً ورعاً لكنهُ استصفى اموال الاوقاف فقام الكهنة عليهِ وكفَّروهُ

"وقد اكتشفنا تمثال هذا الملك في خرائب هيكل ابيدوس . فقد طُرح في مخزن من مخازنهِ كثير من النذور والتماثيل القديمة طُرحت في عهد الدولة السادسة على ما يرجَّح فوجد الفعلة بينها تمثالاً صغيرًا جداً كالاصبع وكسروا رأسهُ وهم ينقبون واتوني بيدهِ من غير رأس فنظفتهُ من التراب ووجدت عليهِ اسم خوفو ومن ثم استسهلت كل صعب في سبيل الوصول الى رأسهِ المفقود . فسألت العمَّال واحداً واحداً عن المكان الذي وضعوا فيهِ التراب وحددت الاماكن التي يجب ان نحصر بحثنا فيها واخذت اغربل التراب غربلة حتى لا تفوتني قطعة كراس الاصبع . وجرينا على هذا المنوال يومًا بعد يوم حتى مرَّ الاسبوع الاول والثاني والثالث . وفي آخر الاسبوع الثالث وجدنا وجههُ تامًّا لا ينقصهُ شيء وفي اليوم التالي وجدنا قفا رأسهِ فتم الرأس وتمَّ التمثال كلهُ تمثال خوفو باني الهرم الاكبر اعظم ملك قام في المسكونة

"والناظر الى هذا التمثال لا يسعهُ الآن يستدلَّ منهُ على اخلاق صاحبهِ فيرى فيهِ دلائل السيادة والحزم والنظر في العواقب مما لم ينقهُ فيهِ احد من ملوك مصر ولا من ملوك اليونان والرومان . ولا شبهة في ان ملكاً اعطي هذه المقدرة وهذه العزيمة يستبدُّ بامرهِ ويفعل ما لا يرضي كثيرين ولكن نظرة واحدة الى وجههِ تنفي عنهُ كل فعل دنيء فلم يستعمل استبدادهُ الاَّ في ما يصلح شؤون بلادهِ ولذلك احلَّهُ المصريون كلهم المحل الاول بين ملوكهم ولا يزال اسمهُ

منقوشاً على هياكلهم وفي مقالع المرمر وعلى صخور جبل سينا . ومقامهُ الاسمى في الهرم الاكبر الذي بناهُ وابقى فيهِ ادق الاعمال التي عملها البشر في كل زمان ومكان

"لقد ارتاب البعض في ما قيل من ان خوفو اقفل الهياكل وابطل الذبائح ولكن خرائب هيكل ابيدوس أيَّدت ذلك فقد وجدنا فيها انقاض هيكل من عهد الدولة الاولى وفوقها انقاض هيكل آخر من عهد الدولة الثانية والثالثة وليس فوقها انقاض هيكل من عهد الدولة الرابعة وغاية ما وجدناهُ من عهدها موقد عليهِ رماد مواد نباتية وكثير من التقدمات المصنوعة من الخزف لا عظم بينها وهذا دليل قاطع على ان خوفو ابطل الذبائح الدموية وابدلها بقرابين من الخزف لا قيمة لها فحفظ ثروة البلاد من التلف وبعد ايامهِ عاد الاسراف فبنيت الهياكل وقُرِّبت الذبائح وتوالى ذلك وتزايد الى آخر ايام المصريين . فثبت ماقالهُ هيرودوتس ابو التاريخ عن هذا الملك العظيم

"احتفرتُ آبارًا كثيرة في تلك الانقاض الى ان عرفتُ تاريخها كلهُ من اولهِ الى آخرهِ لا من الحجارة المكتوبة لانها قليلة بل من شقف الخزف التي يحبها علماء التاريخ الآن اعظم محل ولو داسها لصوص الآثار ولم يعبأوا بها . وقد قرأتُ فيها تاريخ اربعة آلاف عام في ما لا يزيد سمكهُ على عشرين قدمًا من الانقاض"

برج ايفل وخزان اصوان

تكاد شهرة برج ايفل تفوق شهرة برج بابل ومع ذلك يفكّر الفرنسويون في نزعهِ وبيع الارض القائم فيها لبناء البيوت ومد الشوارع . وهذا الفكر لا يخطر الأَعلى بال الفرنسويين الذين يتوخَّون المغالاة في كل شيء فاذا ارادوا المجد والابهة بذلوا في سبيلهما النفس والنفيس واذا ارادوا النفع المحض سبكوا التماثيل قدورًا وصكّوا النياشين نقودًا . فهم في مقدّمة المنكبين في عهد المنكبة وفي مقدمة الجمهوريين في عهد الجمهورية

وقد استشارت حكومة باريس لجنة من كبار المهندسين في امر الرحاب الفسيحة المسماة شان ده مارس التي فيها برج ايفل وهي التي اقيم فيها اكثر المعرض الاخير والمعرض الذي قبلهُ فاشارت بتقسيمها وبيعها لبناء المنازل وقضت بنزع برج ايفل منها كما نُزِع قصر الصناعة حين انشاء المعرض الاخير لكي يسهل على المارين في الشارع الكبير شارع الاليزه ان يروا واجهة الانقاليد . والغرض من ذلك ماليٌّ ويقال انهُ لا يخلو من تعبٍ الخيال لان البعض يحسبون برج ايفل من الشوائب التي تشوّه منظر اجمل مدينة في الدنيا . والناس اذواق